دراسات معاصرة
Contemporary Studies
مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
ASJP Algerian Scientific Journal Platform

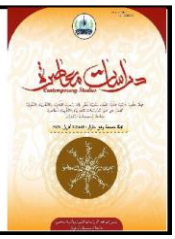

المجلد: 07/ العـدد: 01/ جوان (2023)، ص.458/451

تمظهرات النقد السيميائي في تجربة آمنة بلعلى النقدية للخطاب الصوفي

The manifestations of the semiotic criticism in the critical experience of Amna Bellaala to the mystical (sufi) discourse

عبد الرؤوف لحوار*
lahouar.abderraouf@cuniv-tissemsilt.dz
مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

أ د. شامخة طعام
instaid@hotmail.com
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/11/04 تاريخ القبول: 2023/02/27 تاريخ النشر: 2023/06/02

ملخص:
نتجه في هذا المقال نحو نصوص نقدية سيميائية لآمنة بلعلى، خصت بها خطابات صوفية في فصل من كتابها "تحليل الخطاب الصوفي" لنحدد وفق آليات نقد النقد أي جديد يمكن أن يقدمه المنهج السيميائي باتجاهاته، ويعد مختلفا عن غيره من المناهج. فمن خلال دراسة تجربة الناقدة بلعلى اكتشفنا قدرتها على تمثل النص النقدي السيميائي النظري، وتطبيقه في قراءة النصوص الصوفية. هذه التوليفة بين التجربة السيميائية -وما تتيحه من انفتاح على دراسة العلامات داخل النص وخارجه-؛ والخطاب الصوفي –وما يتصل به من تأويل ولغة إشارية، وما يظهره من انغلاق لغير (العارف)- قدمت من خلالها الناقدة طرحا فريدا، دعم حضور السيميائية عربيا، وكشف عن استراتيجية مختلفة لمقاربة الخطاب الصوفي.
الكلمات المفتاحية: السيميائية، الخطاب الصوفي، السيميائيات السردية، آمنة بلعلى.

Abstract:
In this paper, we shift towards the semiotic critical texts of Amna Bellaala which she devoted for mystical discourses in a chapter of her book "tahlil al khitab assufi" (analysis of the mystical discourse). We shall determine, according to the meta-critical tools, any new and different than the others, that can be provided by the semiotic method with its orientations. Through studying the experience of the critique, we found out her ability to use the theoretical semiotic critical text and apply it in reading the mystical texts. This amalgam between the semiotic experience (and the openness on the study of the marks inside and outside the text it provides) and the mystical discourse (and the interpretations and sign language attached to it and the closure that manifests to the non-expert) allowed her to provide a unique criticism that supported the existence of semiotics at the Arab level and reveled a different strategy to approach the mystical discourse.
Key words: *semiotics; mystical discourse; narrative semiotics; Amna Bellaala.*

*المؤلف المرسل.

مقدمة:

لتحديد مدى قدرة النقد الأدبي على قراءة النصوص الأدبية، وتمييز اتجاهاته المختلفة ومرتكزاته وأسسه، وتأكيد نجاحه في الحفاظ على خصوصية النصوص الأدبية عند قراءتها بمعطيات نظرية نقدية يَفترض مناسبتها لها؛ يتجه الاشتغال النقدي نحو النصوص النقدية النظرية لقراءة المصطلح والمنهج والأدوات والإجراءات المتبعة، وللبحث في تأسيسها النظري الفكري.

ولأن النقد العربي الآن أحوج ما يكون لأن يعزّز مكتسباته، فقد كان حريّا به أن يُسائل مكوناته ومرجعياته من حين لآخر استدراكا لما أشكل في بعض اتجاهاته وتعزيزا لما أفاد في غيرها. فتراكمت محاولات كثيرة ترصد تلك الاتجاهات بالوقوف على أسسها النظرية والتطبيقية على حد سواء.

ولقد شغل النقد السيميائي حيّزا كبيرا في هذه الممارسة النقدية العربية الحديثة، لما له من أهمية في الحركة النقدية، وفي اشتغال اتجاهاته على كشف خصائص الأجناس الأدبية المختلفة.

فطبّق النقادُ النقدَ السيميائي كلٌّ حسب وعيه وثقافته، لتُكشف -بما نتج من تراكمات- للمشتغلين به قدراته على رصد الشواغل الفنية للنصوص والخطابات المختلفة، مما أكد تميزه عن سائر المناهج.

ومن بين ما اشتغل عليه الدارسون بالمنهج، تطبيقه على الخطاب الصّوفي الذي مثّل نموذجا خصبا للتقد والقراءة، فاختلف النّقّاد والدارسون في تأويله حسب مصادرهم ومشاربهم المعرفية، واخترنا تجربة الناقدة آمنة بلعلى نموذجا نطرح من خلاله بعض الإشكالات. فهل استطاعت الناقدة بلعلى أن تحقق ما توخت من أهداف في اشتغالها على الخطاب الصوفي سيميائيا؟ وما المدى الذي التزمت به على مستوى المنهج والمصطلح والإجراء؟ وهل نجحت في جعل آليات النقد السيميائي النظرية، مناسبة لقراءة الخطاب الصوفي؟

نفترض في ذلك أن التجربة الصوفية تتفوق على النظام اللغوي الذي يعجز عن كشف المعنى، ذلك أنّ اللغة الصوفية برمزيتها وخصوصيتها وتميزها لا تقبل التأويل بمنطق المعنى الواحد، فهي تتجاوز "قضية التواصل والتوصيل بالمعنى المفتوح، بل الدافع الأساسي هو التعبير عن معاناة من نوع ما"[1].

كما نفترض باختيارنا تجربة الناقدة بلعلى نموذجا للدراسة، أننا سنتتبع من خلالها جوهر إشكالية علاقة الخطاب الصوفي بالأدب، التي شغلت فكر الناقدة نفسها متسائلة: "هل الخطاب الصوفي الذي ولد دينيا وأخلاقيا يمكن أن يُنظر إليه على أنه أدبي؟"[2].

وهدفنا -من خلال البحث في هذه التساؤلات- الوصول إلى معرفة ما يلي:

- مساحة اشتغال النقد السيميائي في النقد العربي عامة، والصوفي خاصة.
- البحث في تقاطع فكر الناقدة مع النقد السيميائي.
- التعرف إلى خصوصية النقد السيميائي في قراءة الخطاب الصوفي.

ولأن المقال يصبّ في نقد النقد، فإنّ الاشتغال في جزء كبير منه وصفي تحليلي، يتتبع كيفية تحويل المفاهيم النظرية السيميائية إلى نقد تطبيقي.

2. السيمياء:

تعتمد المناهج النقدية في تحليل الخطاب على مبادئ أولية من اللسانيات الوصفية التي أسس لها عالم اللسانيات دي سوسور (F . De Saussure) من جهة، ومن جهة أخرى للسيميائيات ودراسات علم الدلالة. فتحليل الخطاب يعطي النص قراءة متماسكة تروم الإمساك بمقاصد الكاتب والمقاصد التي تخرج منه إلى القارئ، الذي يقوم بالتفكيك والتركيب لكشف بنية النص الأكثر عمقا. وبذلك يصبح تحليل الخطاب آلية تتجاوز مقاصد المؤلف وعندئذ "نعرف أنه ينبغي لكي نعيد للكتابة مستقبلها، أن نقلب الأسطورة، فميلاد القارئ ثمنه موت الكاتب"[3].

على غرار المناهج النقدية الأخرى، نُقلت السيميائية إلى الثقافة العربية من خلال الترجمة، وعبر الأكاديميين الذين درسوا في الجامعات الغربية. واحتاجت كغيرها إلى مدة زمنية حتى تمثّلها الدارسون بشكل جيد، ظهر في القدرة على المواءمة والتكامل بين الوضوح النظري والدراسة التطبيقية على مختلف الأجناس الأدبية[4]. فكان من أوائل من وطّنوا الدراسات السيميائية العربية، وأبرزهم على سبيل المثال (عبد الملك مرتاض)[5] و(عبد الحميد

بورايو)[6]، وآخرين غيرهما ظهرت نتائج تتلمذهم على أيدي أعلام السيمياء مثل (غريماس) و(بارت) و(إيكو)، وما ساعد على هذا الإنتاج انتشار ثقافة التأويل والتفكيك في ظل نظريات القراءة، وإنتاج الدلالة، فكان أن برع نقاد سيميائيون في إنجاز دراسات تطبيقية كانت تاريخية ومفصلية في النقد السيميائي مثل (سعيد بنكراد) و(رشيد بن مالك) و(عبد المجيد نوسي) وغيرهم كثير ممن أسهموا بجهودهم في الجانبين النظري والتطبيقي.

1.2 السيمياء والخطاب

لقد ربط (سوسور) بين اللسان والخطاب النقدي السيميائي واعتبر السيمياء مسؤولة عن تنقية الخطاب، كونها "ذلك العمل الذي يصفي اللسان، ويطهر اللسانيات، وينقي الخطاب مما يعلق به، من الرغبات والمخاوف والإغراءات والعواطف والاحتجاجات والاعتذارات والاعتداءات والنغمات وكل ما تنطوي عليه اللغة الحية"[7]

ومنه يُعتبر الأدب في النقد السيميائي نظاما للعلامات التي تنظمها اللغة، لما تحمله من رموز أدبية وتحتويه من معايير نقدية، نجد ذلك في الربط المباشر بين اللغة والخطاب عند بارت إذ يعتقد "أن اللغة من وجهة النظر التي ننظر من خلالها نحن الآن لا تنفصل عن الخطاب، والشيء اللغوي لا يمكن أن يقوم عند حدود الجملة ولا أن ينحصر فيها... إن الخطاب في مجموعه هو الذي يخضع بشبكة من القواعد والإكراهات والضغوط التي تكون كثيفة ضبابية على المستوى البلاغي، دقيقة حادة على المستوى النحوي، فبين اللسان والخطاب مدّ وجزر"[8].

غير أن ما سبق ذكره لا ينفي معاناة السيميائية –على غرار سواها من الاتجاهات النقدية في استقبالها- من تداخلها مع التأويل والتفكيك والنقد الثقافي، ولعل سبب ذلك يرجع إلى ضعف معرفي، إذ أُثيرت القضية حتى في ثقافات غربية توصف بـ (المركزية)[9]، وبالرغم من ذلك فإن ما للسيميائية من إمكانات تدعم دور الناقد والنصوص والسياقات المنتِجة؛ أسهم في إثراء حركة النقد السيميائي العربي بناء على النظرية الثقافية العربية، إذ اهتمت الدراسات في مجملها بأسس النص الرئيسة كلها: المنتج والمتلقي والرسالة، دون انفصال عن بعضها البعض أو استغناء أحدها عن الآخر. إذ "يرى (باختين) أن العلامات لا يمكن أن تظهر إلا في ميدان تفاعل الأفراد أي في إطار التواصل الاجتماعي. وبذلك فوجود العلامات ليس أبدا غير التجسيد المادي لهذا التواصل.[10]

2.2 الخطاب الصوفي:

يحرص عدد من الباحثين على أن تتم مناقشة الخطاب الصوفي، حضاريا ومعرفيا، وذلك بإثبات مرجعيته الدينية الإسلامية خلافا لمن أرادوا جعله مخالفا تماما له، ونفوا أن تكون له صلة بالإسلام، وإنما هو أقرب ما يكون لما يوجد في ثقافات وديانات أخرى. وباعتبار هذا الخطاب –بخصوصياته- من وسائل ضمان تلبية الحاجة الاجتماعية الملحّة للاطمئنان الروحي للمجتمعات التي تعيش اضطرابا وحيرة، سيّما وأنّ هذا الخطاب يرتكز في رمزية مضامينه على مفهوم الكمال الإنساني لانطلاقها أساسا من الإنسان الذي لا شيء أسبق ولا أكثر أهمية في اهتمامه وفي دراسته وتحليله في التجربة الصوفية منه، وهي مقاربة يراها النقاد فريدة عجيبة، لا أدل على فرادتها من صمود التصوف عبر تاريخه في وجه هذا الكم من التهديدات الفكرية والثقافية والسياسية وغيرها، ما يفتح التساؤل عن سر هذا الصمود، أيمكن أن يُعزى إلى قدرة التصوف على الإجابة عن أسئلة الإنسان الكونية والكلية المحيرة بشكل مختلف تماما عن أي فلسفات أخرى. والذي يتأتى للعارفين به عن طريق ممارسات تواصلية بتجسيد التأمل والكشف. كما يؤكد المشتغلون على الخطاب الصوفي أن اعتماده مشروعا لإصلاح المجتمعات، سيكشف مدى تأثيره روحيا -عند تلقيه- في نجاحه في مواجهة عنف وكراهية خطابات دينية أخرى متشددة ومتطرفة.

ومن منطلق الأهميّة البالغة للمناهج في الدراسات النقدية، باعتبارها أهم وسائل فهم القضايا ومعرفة حقائق الأشياء، وبالنظر لما واكب هذه القضية من أسئلة حول ما يربط المناهج بأهداف الموضوعات المدروسة، ولأن التجربة الصوفية تجاوزت كونها "تجربة في التطر إلى كونها تجربة في الكتابة ورمزيّة عرفانيّة"[11]، فإنّ انفتاح هذه المناهج على التصوّف جعله "متنا مركزيا يمكن البحث فيه عن معالم نظرية حديثة"[12] ، وجعل التعامل معه على أنه خطاب؛ بعيدا تماما عن النسبية والأدلجة. كما أفسح له المجال -بتفوقه- لإثارة إشكالات شتى على مستوى الاتصال الأدبي، ليصبح التعامل معه حينئذ باعتباره كتابة صوفية أو أدبا صوفيا، "ولقد أثارني خلو كتب تاريخ الأدب العربي من ذكر الأدب الصوفي، وكنت قد قرأت نصوصا منه في النثر والشعر تفوق في أدبيتها كثيرا من النصوص التي

شغلت الناس"[13]. وذلك لما للخطاب الصوفي من خصائص لغوية ومجازيّة مختلفة على مستوى التلقي والتأويل، وأن أكثر ما يثار من جدل في الخطاب الصوفي، قائم حول خصوصية اللغة وتفرّدها، وصعوبة تأويلها، لعدم مطابقة المعنى للمدلول فيها. وهو ما يؤكّد صفته الإبداعية التي تميّز ارتباطه بالأدب، فيصبح حينئذ تلقي هذا الخطاب الأدبي متعلقا أساسا بتلقي لغته. فاللغة الصوفية غامضة تنساق مع غموض النفس لتؤسس دلالاتها. والقول بغموضها يستند إلى أنها تعتمد الرّمز تقنية مهمة وضرورية لدرجة الشطح اللغوي، الذي تثبت به طبيعة وجودها الدائم. ويرجع ذلك إلى أن التصوف "حالات وجدانية خاصة يصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة، وليست شيئا مشتركا بين الناس جميعا"[14]. لذلك يتصف بالغموض والانغلاق والانزياحية المفعمة بالرمز والإشارة والإيحاء. "وإذا كانت القاعدة الخطابية تنصّ على التحرر من الغموض ضمانا لتحقق الفهم، فإن الرمز الصوفي يعمل على خلاف هذه القاعدة بالكلية بل إنه باتر للبعد التواصلي مبطنٌ القصدية من خطابه إلا على أقلية مقصودة. بل إن الخطاب الصوفي في مجمله لم يُصَغ على نية الكتابة أو الحدث المنطوق المعدّ للتداول والتوثيق بل صِيغ على سليقته بكرا غير مجمّل ولا مصقول ليناسب أفق المتقبّلين"[15].

3. النقد السيميائي وآليات المنهج عند آمنة بلعلى:

لقد أظهرت السيمياء مرونة كبيرة -عند استقبالها من ثقافتها الغربية- في قراءة النصوص العربية، لما لها من خصائص منهجية تعلقت في مدار اهتمامها بالعلامات التي تتيح تفسير العالم؛ ولما يخص طبيعة النصوص العربية؛ كذلك ما تعلق بالتراث النقدي العربي؛ كلها عوامل أدركت بلعلى أهمية توافقها وانسجامها معا في خدمة اشتغالها على الخطابات المتنوعة بما تتيحه هذه التوليفة من آليات وإجراءات لمساءلة النظريات الفكرية، وإبراز الاختلاف والجديد الذي يمكن أن تقدمه هذه المناهج في قراءة النصوص الأدبية والثقافية، فانشغلت بلعلى -على غرار الكثير من النقاد- بإعادة سيرة الثقافة العربية في كتاباتها، مع مناهج النقد عموما والسيمياء خصوصا، تنظيرا وتطبيقا بدا فيه التكامل والاتصال بينهما، بطريقة لا تندرج ضمن ما أعابه النقاد على استقبال المناهج في الثقافة العربية، في أنه إذ لا يكاد يصل أحدها حتى يتم القفز إلى غيره. ومن أهم الدراسات التي اعتمدت فيها المنهج السيميائي: كتاب **سيمياء الأنساق**، وقد "بحثت بلعلى في هذا الكتاب في المعرفة التراثية بفروعها المختلفة نحوا وبلاغة ونقدا، وعلم أصول، واعتبرتها أنشطة فكرية سعت للبحث عن القوانين التي تهتم بالكشف عن المعنى، وتُعنى بتتبع الآليات الكاشفة لوجود الدلالة في الخطابات، فهذا الكتاب بحث عن الجذور السيميائية في مدونات تراثنا (النحو، البلاغة، النقد، الأصول)"[16]؛ وكتاب **تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة**، وهو مدار بحثنا هذا، حيث درست فيه الناقدة جوهر التلقي وهو التواصل، وتعرضت إلى المظهر التداولي لخطاب المعرفة في الحديث الصوفي من خلال التفاعل بين الخطاب الصوفي والمتلقي. معتمدة في فصله الثالث على أهمية السيميائيات وعلى دورها في الكشف عن موجهات تشكل الحكي وكيفية اتساع دائرة الاتصال بين المتصوفة والآخرين والبحث عن النشاط السيميائي للمتلفظ في الخطابات المنتَجة بفعل التلقي والتواصل.

1.3 النقد السيميائي للخطاب الصوفي عند آمنة بلعلى:

ما يلفت الانتباه في الدراسات النقدية السيميائية عند الناقدة عموما، وللخطاب الصوفي خصوصا –وهو ما يهمنا في هذا البحث- أن اعتمادها المنهجَ في استنباط مظاهر السردية الصوفية، قد ركزت فيه الناقدة على ربط التنظير بالإجراء النقدي، حيث عبرت عن نواياها هاته في كتابها (تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة) في فصله الثالث المعنون بتمفصلات الحكي "الذي احتكمت فيه إلى السيميائيات السردية"[17] والذي سيكون عليه مدار بحثنا هذا. فخصت بالدراسة خطابات متصوفة القرن الثالث في كتاب (اللّمع) لأبي السراج الطوسي، وهو أقرب المصادر لمتصوفة القرن الثالث[18]، بما حواه من إخبار وعجائبية وخوارق، كمواد حكي ملائمة لتحقيق فاعلية التواصل وتحديد تمفصلات فعل الحكي ضمن بنى الخطاب السردية.

1.1.3 الإجراء النقدي (المصطلحات، الأهداف):

ترى الناقدة أن ما اشتغلت عليه من نصوص أو خطابات صوفية في هذا الفصل يتلاءم مع المعطيات النظرية للسيميائيات والسيميائيات السردية منها خصوصا، وهو ما أشارت إليه من خلال عنوان الفصل "تمفصلات"

ودلالتها العامة على النشاط السيميائي[19]، إضافة إلى تعويلها الشديد على النص الصوفي ودلالاته، وليس على المتلقي أو سياق العلامة.

من خلال هذا الارتباط تظهر نية الناقدة في وضع هذه المفاهيم أمامها، ومناقشتها ضمن إطار هيلمسليف/Hjelmslev [20]، والسيميائيات السردية (مربع غريماس) ومفهوم البنية العميقة والبنية المحايثة، ونجاعته في قراءة النصوص العربية القديمة. فلم تكتف بالتنظير، بل ركزت جهودها على نصوص وشخصيات صوفية شهيرة وسمت بالكثير من السمات، حتى صارت أيقونة في حركة النص الصوفي والتصوف تاريخيا.

إن اختيار الناقدة لعنوان عريض يحيل إلى الحكي والسرد، يشي بأن ذلك التنظير سيتخذ له مدارا تطبيقيا يتجلى في هذه الفروع (موجهات تشكل الحكي) و(مظاهر بنية النوع القصصي)[21] وما تفرع عنها من اصطلاحات كثيرة (الوجد والشطح، الرؤيا، المخاطبة، الخوارقي أو الخرق، تأويل الكرامة، رمزية المعراج) وما صاحبها من تحليل لمستويات الخطاب وبنيات السرد فيها، ورصد قيمة تفاعل عناصر هذه البنى في إنتاج وتوليد المعنى.

العنوان لا يبين -فقط- توجيه الناقدة جهودها نحو الحديث عن "أقرب المصادر الصوفية لمتصوفة القرن الثالث وهو اللمع"[22]، بل يجيب عن سؤال يشغل بال المتلقي حول قصد الناقدة المسلك النظري في قراءة النص الصوفي، وأنها ستقوم بقراءة مجموعة من النصوص وفقا للعناوين التي اقترحتها في ذينك العنوانين الفرعيين الشارحين.

ولقد تركت بلعلى لإجرائها النقدي حرية التنقل بين مقدمات الاتجاهات السيميائية المتنوعة (غريماس)، (سوسير)، (سياقية إيكو)، (تداولية بيرس)، مع اهتمامها بكل ما يمكن أن تكون له صلة بالتلقي والتفاعل والحركية الثقافية، إذ أن هذه المفاهيم تدعم البرنامج السيميائي السردي للنص الصوفي، الذي يحاول تجاوز السنن اللغوي داخل الإجراء، إلى العلامة.

لم يفت الناقدة أن تشير إلى إشكالية الوقوف على ظاهر النص في تلقي الخطاب الصوفي، إلى حد الاتهام بالكفر والزندقة في الكثير من الأحيان، فأشارت إلى ضرورة إدراك ثنائية الظاهر والباطن في المعرفة الصوفية، وإدراك الجذور الفلسفية التي أنتجت تلك **اللغة غير المألوفة**، فإن كانت اللغة -عادة- موضوعا للعوالم المادية، فاللغة الصوفية أمام عوالم غير مادية (عوالم المكاشفة) وهذا ما أدى بالمتصوفة إلى ما اصطلح عليه بالشطح "الذي أصبح من الأساليب المهمة في تفعيل التواصل بين المتصوفة والمتلقين"[23] وهو ما اعتبرته الناقدة ميزة سردية صوفية تؤسس للبعد الخوارقي. كما افترضت فهم هذه اللغة فهما دقيقا بعيدا عن التفسير العامي لأقوال المتصوفة، وتجاوز المعرفة الظاهرية إلى المعرفة الباطنية التي تمثل حقيقة تأويل النص الديني عند المتصوفة[24].

تهدف الناقدة من خلال المقاربة إلى تجاوز القراءة السطحية للنصوص الصوفية، وتأسيس منهجية خاصة في التعامل مع النصوص في الثقافة العربية. وهذا بالسعي إلى تطبيق إجراءات المنهج السيميائي واتجاهاته، رغم تداخل استقباله -كما أشرنا سابقا- مع غيره من المناهج، ورغم اضطرارها إلى اعتماد المنهج الشمولي في الكتاب كله [25]، بالرغم من أن بعض النقاد يرون فيه "دعوة إلى تركيب ما بين المناهج، لم تصل إلى درجة التصريح، اكتفت بأن تكون دعوة إلى عدم التعامل مع المناهج النقدية تعاملا آليا أو الحث على البحث عن منهج بديل يتجاوز قصور المناهج الحالية"[26].

وجهت الناقدة جهودها نحو الحديث عن أخبار متصوفة القرون الثالث إلى الخامس (الحلاج، البسطامي، النفري، التوحيدي، ابن الفارض، وابن عربي وآخرين) في شكل توريط للمتلقي حتى يشارك في لعبة التجلي والخفاء والتلقي وإعادة الإرسال بين الصوفي والمتلقي (العامة). ولئن كانت الناقدة قد استهدفت مكونات الخطاب الصوفي، إلا أنها اختارت بنى أخرى غير الشعر، لتكشف عن آلية اشتغال النص الصوفي على توسيع دائرة الاتصال بين المتصوفة ومتلقيهم، وكيفية تقطيع تشاكلات هذا الخطاب وتركيبه العميق وتركيبه السردي. ثم إن تحليل شخصيات صوفية على مستوى الخطاب، جعل منها النصُّ النقدي أساسا لتحويل المفاهيم النظرية إلى إجراءات نقدية. "من خلال خطابات محملة بقوة الفعل والحركة هي السردية Narrativité المبدأ المسؤول عن تنظيم الدلالة في الخطابات"[27] وهو ما سمح للناقدة بغوص أعمق في نصوص وخطابات تلك القرون، فتجاوزت بلعلى ترتيب الصور المشكَّلة بالشخصيات والزمان والمكان والبحث في تتابع مساراتها التصويرية الجديدة، إلى قراءة مغايرة مبنية على

توليد المعنى والتأويل، مرتكزها في ذلك ما تحمله تلك الصور من دلالات تسبر أعماق النص الصوفي وتعيد قراءة ظاهر صور الخطاب، لتشكل عملية توليدية مستمرة للمعنى. وذلك بما مكنتها القراءة السيميائية من تناول جوانب عديدة يسمح بها التحليل السيميائي، تختلف عن ما سبق في كثير من الدراسات للنص الصوفي التي حاولت قراءته في حدود البلاغة والأساليب، "فالأصوب في نظرنا هو تحليل الرمز الصوفي انطلاقا من حالة الوعي الرمزي/ Symbolic Conscious"[28]. وهو ما يتيحه النقد السيميائي السردي على المستوى الإجرائي، من آليات تكشف غنى كبيرا للمنهج، مما ساعد الناقدة على التنويع في المصطلحات والمغايرة وإبراز خصوصية الأنواع المتشكلة كالحكي والنوع القصصي، عن طريق التجربة التواصلية.

لقد بحثت **المصطلحات** السيميائية الثقافية عن طريقها داخل الخطابات التي اشتغلت عليها الناقدة، محاولة البحث في بنيتها العاملية عن مكونات تحول شخوصها إلى رموز وعلامات، تنتقل داخلها من المحسوس إلى المجرد، ومن الواقعي إلى التخييلي ضمن عملية تداولية للحكي الذي يستجيب إلى آفاق انتظار واسعة لمختلف شرائح المتلقين[29]. وتحليل الناقدة للشخصيات اعتمد الاشتغال على البنى السردية للحكي ممثلة في المكان، الزمان، الراوي...، ربما يرجع ذلك في الأصل إلى طبيعة النصوص الصوفية التي لا تأبه إلى هذه البنى، بسبب تحررها وانتقالها في اللازمان وارتحالها في اللامكان، لتغدو بذلك نصوصا منطلقة عبر كل زمان وكل مكان. تتقاطع في ذلك مع تأويلها للنصوص المحورية. هذا الفعل التواصلي "ينبني على حركتين عمودية – أفقية، ليست إلا المرحلتين الأساسيتين لطبيعة هذه النصوص التي تلتقي مع النص الديني الذي يربط كل تصور لعملية الخطاب بمفهوم إبلاغ الرسالة الدينية، وذلك في عنصر النقل مجرداً"[30]. فَعجّت هذه النصوص بالأحداث السردية كالشطح، الرؤى، الكرامات...؛ بفعل الانجذاب إلى التأويل. وعمليات تسريد الشخوص هذه مُهمة كونها تشكل المرحلة الأساس في مدار البحث في الخطاب الصوفي، فالصوفي ينطلق من التركيب الأولي الأصولي (الخبر، الصوفي المتكلم)، مرورا بالنموذج المشخص (الشطح، الرؤيا)، إلى التركيب العاملي الذي يحققه التركيب الخطابي (المخاطبة) لتصبح رؤيته رؤية تأويلية للعالم.

تعلن الناقدة منذ عتبة الكتاب أنها تتوجه نحو التحليل السيميائي السردي للخطاب الصوفي عبر عناصر رئيسة هي: البنيات الخطابية، التركيب، الدلالة، إضافة إلى معارف أخرى من خلال ما يدل عليها من مصطلحات.

ومن أجل القبض على فعل الحكي داخل هذه المستويات والتحرك بها، يجب اقتران هذه الشخصيات (الصوفية) بالحدث أو الفعل الذي يقع داخل ثنائيات متقابلة من قبيل عبد/ رب، الحقيقي/ الخوارقي، الظاهر/ الباطن، الشريعة/ الحقيقة، المعاملة/ المكاشفة، البرهان /العرفان وغيرها، فتقوم الناقدة بإسقاط المحور الدلالي للفعل (الخوارقي) على المحور الاستبدالي (الحقيقة) لخلق تأويلات تظهر علاقة الصوفي بالحدث ضمن علاقات إثبات ونفي. وهنا تظهر البنية السردية لشخصية الصوفي داخل النص الصوفي السردي، "وليس ضروريا أن تحيل تلك الشخصية على كائن حي له وجود في الواقع، وليست شخصية مؤنسنة بالضرورة، فالشخصية هي علامة"[31] وليس غريبا –حينئذ- أن نجد شخصية تجمع مع خواص الإنسان خواص غير إنسانية (تأويل الكرامة، معراج ابن عربي). أما النّص فإنه يتصل بوضوح بنص خارج عنه هو النص الدينيّ الذي يصبح قيدا ومَرجعا له، انطلاقا من فكر المتصوفة في إثباتهم قابلية التأويل والقراءة للنص القرآني.

يتجلى ذلك في أكثر من نموذج أوردته الناقدة مثل القصة الصوفية كنوع تشكل عن فعل الحكي ظهر من خلال: الرؤيا وعلاقتها الدينية بقصص القرآن الكريم، كما ينطبق أيضا على تطور الحكي في تأويل الكرامة ورمزية المعراج عند ابن عربي التي تعتبر في رمزيتها مثالا عن الجدل الصوفي وأداة تعبير فني، تدل على رحلة الإنسان في مراحل مختلفة ومتجددة. تقارب الناقدة من خلال هذه الرمزية مفهوم الحقيقة الدينية في نظر المتصوفة، إلى اعتبارهم إياه حقيقة فكرية وتجربة استبطانية.

4. خاتمة:

إن النصوص الصوفية التي اشتغلت عليها الناقدة تنتمي لمرحلة تاريخية حقيقية فتحت باب التأويل والتفسير للقارئ والناقد معا، وهو ما يُظهر أهمية اطلاع الناقدة على الفترة التاريخية التي خصت بها دراستها، إضافة إلى وعيها بالقيم الثقافية السائدة، وانتماءات الشخوص الصوفية الدينية وأهمية تعاملها مع المتلقين، كل ذلك من خلال اشتغالها

بآليات وإجراءات منهجية مناسبة لقراءة هذا الخطاب الأدبي، كان للسيميائية -السردية منها- نصيب وافر لما تتيحه من إمكانات في كشف خصائص الأجناس الأدبية وشواغلها الفنية، ولتميزها بالموازنة بين التوجه إلى علامات النص، وما ينبثق عنها ويقع خارج النص.

كما نخلص في خاتمة البحث إلى نتائج أهمها:

- أنّ الخطاب النقدي عند آمنة بلعلى اتسم بالوضوح والمرونة في تمثلها لأصول السيميائية ومقاصدها المنهجية، ظهر ذلك في ابتعادها عن التقيد بالأحكام المسبقة والمسلّمات؛ والسهولة في التقديم، وإن اقتضى ذلك بعض التداخل مع مناهج نقدية أخرى بشكل يخدم قراءة النص ومرونة من المنهج السيميائي المشتغل به (وهي ميزة فريدة للمنهج).

- تمكُّن الناقدة من مادتها المعرفية في الخطابات الصوفية وجوانبها التاريخية ساعدها على اختيار المادة التي تخدم الدراسة وأهدافها ومناهج وآليات نقدها.

- مستوى الخطابات الصوفية المختارة اقتضى في كثير من الأحيان أن تتجاوز الناقدة التقيد النظري للمنهج السيميائي وإجراءاته، إلى إتمام اشتغالها بالتأويل والتفكيك والنقد الثقافي، وهو ما دل على اهتمام شديد من الناقدة بكل أطراف النص: المنتج والمتلقي والرسالة بصفتها التواصلية.

هذه النتائج لا تنفي أن المنهج السيميائي لا يزال بحاجة إلى تفعيل أكثر في المعرفة العربية، وهو ما يشترك فيه المنهج مع النصوص الصوفية من حاجة إلى مزيد من الاشتغال والتناول، تحقيقا للتراكم الذي يسد الفراغ المعرفي الذي نستشعره في النقد العربي عموما والسيميائي منه خصوصا على مستوى الاستقبال، "ذلك لأنه إذا كنا نعاني اليوم من كثير من مظاهر الاستلاب إزاء الغرب، فلأننا نأخذ منه النتائج والثمرات، ونعرض عن المبادئ والأسس: نستورد منه لنستهلك، وليس لنغرس ونستنبت، ومن دون شك فإن النجاح في عملية الغرس والاستنبات يتوقف على إعداد التربة الصالحة، والتربة الصالحة لا تستورد"[32].

الإحالات:

1 محمد علي كندي، في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط 1، بيروت 2010، ص 81.

2 آمنة بلعلى، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي (من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 8.

3 فانسان جوف، الأدب عند رولان بارت، تر: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، ط1، سورية، 2004، ص 79.

4 يراجع الزهراني- معجب، في المقاربة السيميائية، علامات في النقد الأدبي، الجزء الثاني، المجلد الأول، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ديسمبر 1991، ص ص 143-163.

5 عبد الملك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أنت ليلاي لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

6 عبد الحميد بورايو، التحليل السيميائي للخطاب السردي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

7 بارت- رولان، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986، ط2، ص 23.

8 بارت- رولان، المرجع نفسه، ص 22.

9 نجوى نصر، التفاعل الحضاري في نتاج أدبي، كتابات معاصرة، العدد 27، المجلد 7، بيروت، نيسان – أيار1996، ص 24.

10 مخلوف عامر، مناهج نقدية (محاضرات ميسرة)، منشورات الوطن اليوم، الجزائر، 2017، ص 89.

11 أسماء خوالدية، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، لبنان، منشورات ضفاف، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف، 2014، ص 14.

12 آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ط 3، الأمل، الجزائر، 2009، ص 5.

13 آمنة بلعلى، مرجع سابق، دمشق، 2001، ص 8.

14 أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة، ط1، القاهرة 1979، ص8.

15 أسماء خوالدية، مرجع سابق، ص 171.

16 صالحة عباسي- عمر عيلان، تمثلات المنهج السيميائي في كتابات آمنة بلعلى، مجلة الموروث، الجزائر، المجلد 9، العدد 1، جوان، 2021، ص 258.

17 آمنة بلعلى، مصدر سابق، ص 14.

18 آمنة بلعلى، المصدر نفسه، ص 176.
19 آمنة بلعلى، مصدر سابق، ص 14.
20 آمنة بلعلى، المصدر نفسه، ص 14.
21 آمنة بلعلى، المصدر نفسه، ص 173.
22 آمنة بلعلى، المصدر نفسه، ص 176.
23 آمنة بلعلى، المصدر نفسه، ص 181.
24 يراجع آمنة بلعلى، رؤية العالم في الخطاب الصوفي، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، 2001، العدد 15.
25 آمنة بلعلى، مصدر سابق، ص 12.
26 محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 44، ط 1، الرباط، 1999، ص 152.
27 آمنة بلعلى، المصدر نفسه، ص 175.
28 أسماء خوالدية، مرجع سابق، ص 177.
29 آمنة بلعلى، مصدر سابق، ص 184.
30 المصدر نفسه، ص 202.
31 يراجع، فيليب هامون، سيميولوجيا الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الكلام للنشر والتوزيع، الرباط، 1990.
32 محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، بيروت، سبتمبر 1990، ص 44.

مراجع المقال:

1. أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة، ط1، القاهرة 1979.
2. أسماء خوالدية، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، لبنان، منشورات ضفاف، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف، 2014.
3. آمنة بلعلى، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي (من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
4. آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ط 3، الأمل، الجزائر، 2009.
5. آمنة بلعلى، رؤية العالم في الخطاب الصوفي، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، 2001، العدد 15.
6. بارت- رولان، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي،ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986.
7. الزهراني- معجب، في المقاربة السيميائية، علامات في النقد الأدبي، الجزء الثاني، المجلد الأول، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ديسمبر 1991.
8. صالحة عباسي- عمر عيلان، تمثلات المنهج السيميائي في كتابات آمنة بلعلى، مجلة الموروث، الجزائر، المجلد 9، العدد 1، جوان، 2021.
9. عبد الحميد بورايو، التحليل السيميائي للخطاب السردي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.
10. عبد الملك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أنت ليلاي لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
11. فانسان جوف، الأدب عند رولان بارت، تر: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، ط1، سورية، 2004.
12. فيليب هامون، سيميولوجيا الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الكلام للنشر والتوزيع، الرباط، 1990.
13. محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 44، ط 1، الرباط، 1999.
14. محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، بيروت، سبتمبر 1990.
15. محمد علي كندي، في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط 1، بيروت 2010.
16. مخلوف عامر، مناهج نقدية (محاضرات ميسرة)، منشورات الوطن اليوم، الجزائر، 2017.
17. نجوى نصر، التفاعل الحضاري في نتاج أدبي، كتابات معاصرة، العدد 27، المجلد 7، بيروت، نيسان – أيار1996.